عدنان السبيعي

الصحة النفسية
للأسرة والمجتمع
١

الصحة النفسيّة للجنين

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

١٥٥,٤
س ٤٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

الصحة النفسية للجنين

الصحة النفسية للجنين/ عدنان السبيعي. - دمشق : دار
الفكر، ١٩٩٧ . - ٩٤ص؛ ٢٠سم.
١- ١٥٥,٤ س ب ي ص   ٢- العنوان
٣- السبيعي
مكتبة الأسد
ع- ١٩٩٧/٣/٢٠٢

الصحة النفسية
للأسرة والمجتمع
١

الصحة النفسية للجنين

عدنان السبيعي

الرقم الاصطلاحي: ١١٠٤,٠١٣
الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-341-0
الرقم الموضوعي: ١٥٠
الموضوع: علم النفس
العنوان: الصحة النفسية للجنين
التأليف: عدنان سبيعي
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ٩٦ ص
قياس الصفحة: ١٢×١٧ سم
عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com

إعـــادة
١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م

ط١/ ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م

الصحة النفسية

للأجنة	امومية	تتعلق بالأم وتفاهمها مع الجنين .
للأطفال	أسرية	تتعلق بالأبوين معاً وصغارهم .
للراشدين	ذاتية	فهي من مسؤوليات الراشد .

﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي ﴾

[آل عمران ٣ / ٣٥]

المحتوى

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٩
مشاهدات حول الجنين	١٣
الفصل الأول : معنى الصحة النفسية	١٩
التعريف الأول	٢٢
التعريف الثاني	٢٣
التعريف الثالث	٢٥
الفصل الثاني : تخلق الجنين وتطوره	٢٩
المدخل إلى الدراسات العضوية	٣١
قصة تكون الجنين	٣٤
التنبؤ بجنس الجنين	٣٦
جنس الجنين تحدده نطفة الرجل	٣٨
قصة الصبغيات ومسؤولية الوالدين	٣٩

الموضوع الصفحة

الفصل الثالث : تكون علم نفس الجنين ٤٥
وقائع وظواهر مهدت لتكوين علم نفس الجنين ٤٩
السمع ٥١
البصر ٥٧
التذكر ٥٨
الفصل الرابع : الرباط الأمومي البنوي ٦٥
أروع ما قدمه علم نفس الجنين ٦٧
الرباط قبل الولادة ٦٩
حين تغني الأم للجنين ٧٥
أفضل الطرق للتواصل مع الجنين ٧٩
خاتمة : الصحة النفسية والتربية للجنين ٨٧
الأمور السالبة التي يجب على الحوامل أن تتحاشاها ٨٨
الأمور الإيجابية التي يجب على الحوامل تحقيقها ٩٣

تمهيد

قبل ثلاثين عاماً مضت على عالمنا الحالي ، ما كان واحد من الناس ولا واحد من الأطباء أو العلماء يتصور أن للجنين شعوراً خاصّاً به أو إحساسات أو ظواهر نفسية ، فلا العلم التجريبي ولا الطب الرّسمي ، ولا حتى خيال المتخيِّلين يتصوَّر أن للجنين نفساً بشرية ...

كان الجميع يعتقدون أن الجنين في بطن أمه عضو جسماني ملحق بالأم ، يكبر وينو (كما تنمو حبة فاصولياء في أصيص) ثم ينفصل عنها إذا أقبل وقت الولادة . هل تتصور عزيزي القارئ أن حبة الفاصولياء تفهم أو تشعر أو تبتسم

أو تتذكر ؟.. ويطربها الصوت الموسيقي فتتحرك طرباً ؟ طبعاً لا ، إنهم كانوا يرون الجنين كائناً حيّاً حياةً بقلية في أبسط مستويات الحياة . صحيح أنه يتغذى من أمه ويطرح في دمها النِّفايات ، إلا أنه لا يدرك شيئاً أو يفهم شيئاً أو يتأثر أو يؤثر في شيء .. معنوي .

المشكل هو أن البشر طيلة الأيام الخالية ما كانوا يرون الجنين أو يتّصلوا به إلا إذا مرض وأسقط ، أو كان في حالات خطيرة تجعله (طرحاً) أو مولوداً مبكراً في ولادته . ولم يكن أحد يدري ما يجري في حياته حين يكون سويّاً وسليماً ، وباختصار كان الجنين السليم مجهولاً .

وهكذا كانوا يحكمون عليه (حكماً غيابيّاً) مثل أحكام الظالمين .

زد إلى ذلك أن الطب البشري كان حتى منتصف القرن العشرين يتردد في التعامل مع الفعاليات النفسية ، ويجهل دور الانفعالات في الأمراض والجسم البشري بوجهٍ عام ، فكان

الأطباء يتركون للفلاسفة ولذوي الخيالات موضوعات لا تُقاس ولا توزن ـ كما تُقاس حرارة الجسم ـ ولا يمكن تحديد مكانها ، كما يحدد موضع القلب أو مكان الدماغ . وهكذا كانت الفعاليات النفسية خارجة عن اهتمامات الطب ، ومشاغل الطبيب وأوقاته الضيقة لا تسمح بالاهتمام بتصورات المريض وأفكاره .

■ قال لي طبيب تخرَّج في الأربعينات : « ما لنا ولهذا كله ؟! نحن أمام مرضى يختلج جسم الواحد منهم وتضطرب أعضاؤه بشكل واضح ، وتريدوننا أن نترك شكواه الجسدية الواضحة وضوح الشمس ، كي نُعنى ونتوجه صوب ضبابيات الأفكار ومغيبات القلق والعواطف النفسية ؟؟.. إن المريض كائن فيه شيء مادي معطل في أحد جوانب جسمه ، وعلى الطبيب أن يقوم بمهمته وهي أن يتوجه من أجل تشخيص العطل والسيطرة عليه ، وهذا كل ما يتوجب علينا أن نفعله » .

● قال هذه العبارات طبيب تخرَّج على أيدي أساتذة أطباء خاضعين للاتجاهات المادية والآلية السائدة منذ القرن الثامن

عشر ؛ أي قبل أن تكتشف وتظهر ثم تترسخ الاتجاهات النفسية وآثارها في الأمراض . وقبل أن يظهر الطب (السيكوسوماتي) النفسي الجسدي ، وقبل أن يُعرف تأثير القلق والاضطراب النفسي والعاطفي في أمراض الجهاز الهضمي ؛ (القرحة والسمنة المفرطة) ، وأمراض الأوعية الدموية والقلب الإكليلي وضغط الدم الأساسي (الجوهري) ؛ وقبل أن يعرف أن هذه الأمراض نفسية جسدية (تظهر وتتجلى في صور جسدية ولكنها ذات مصدر نفسي) . وأخيراً قبل أن يظهر الطب الشامل الذي يعالج الإنسان معتبراً أن الجسد والنفس وجهان لحقيقة واحدة ، هي الإنسان .

■ وهكذا التقى أمران هامان في آنٍ واحد ، أديا إلى انقلاب في مفاهيم التكوين الإنساني والأمراض التي يتعرض لها الإنسان . كان هذان الأمران :

أ ـ تقدم وسائل البحث العلمي واستخدام التقنية وعلى رأسها التنظير .

٢ً ـ الاعتراف بدور النفس وأثر العوامل النفسية وتساوقها مع العوامل الجسدية في كل من الصحة والمرض .

• لقد أدى الأمران العظيمان إلى مكتشفات لم يَرَها من قبل أحد ، ولا كان يتوقعها أحد ، ولا خطرت على بال أحد . فلنتوجَّهْ ولندرُسْ جانباً من هذه المكتشفات التي تتعلق بالفترة الأولى من حياة الإنسان ؛ وهي فترة التَّخلُّق والتَّكوُّن الجنيني .

مشاهدات حول الجنين(١) :

رأى الباحثون أن الجنين كائن معقَّد وليس مجرد عضو ملحق بالأم ، ولا يشبه في شيء حبّة الفاصولياء البسيطة .

شوهد بالتَّنظير أنه ذو حساسية بشكل واضح جلي

(١) امتدت المشاهدات من رؤية الجنين البشري إلى مواجهة الأجنة عند بعض الحيوانات كالخراف مثلاً . فقد قدموا بواسطة تسجيل على شريط لمسجلة صوتاً لعواء ذئب فارتعش الجنين في بطن أمه واضطرب وكأنه يودُّ الهرب (سبحان الله) .

ومؤكد ، نلخصه بعبارات بسيطة ثم نتولى شرحه والتوسع فيه فيما بعد .

■ رأوه يفرح ويألم ، وتظهر على وجهه وحركات جسمه علائم الفرح المنشرحة والألم المنكمش .

■ يصعب علينا أن نقول إنه يحب ويكره ، ولكن سلوكه يعبر عن ذلك ، فإذا راق له المذاق أقبل على الغذاء السكري يمتصه بوفرة ونهم ، وإذا لم يَرُق له أعرض عنه وكشَّر بوجهه ! وضعوا له السكر المذاب في السائل المغذي الذي يحيط به فأقبل عليه يمتصه (ويشفطه) ، ووضعوا له مادة كريهة المذاق تُسمى الليبرول (الشبيهة باليود) فأبدى نفوراً منها وامتعاضاً ظهر عليه .

● وفي أثناء عزف معزوفة موسيقية هادئة قدمت لأمه ، شاهدوه يهدأ كمن ينصت ويبدو عليه الانشراح .

■ وخلاف ذلك قدَّموا موسيقى صاخبة ، فشاهدوه يضطرب وينفض يديه ورجليه ..

● أسمعوه (بعد الشهر السابع) أصوات رجالٍ كثيرين ، فرأوه يبتهج ويظهر سروره لسماع صوت أبيه ويبدو أنه ميّزه وتعرَّف على لهجته .

■ وحينما تعمد أمه إلى التدخين فإنه يظهر انزعاجاً شبيهاً بانزعاجه حيال الموسيقى الصاخبة(٢) .

---

(٢) قال طالب جامعي يعلق على مشاهدة الأجنة مستفهماً « كيف نفسّر هذا الكشف العلمي ونوضّح توافقه مع النَّص القرآني : ﴿ واللهُ أخْرَجَكُم مِن بُطونِ أُمَّهاتِكُم لا تَعْلَمونَ شَيْئاً ﴾ [النَّحل : ٧٨/١٦] ؟ فأجبنا الطالب بما يأتي :
لاحظ أن منطوق الآية ﴿ أخرَجَكُم مِن بُطونِ أُمَّهاتِكُم لا تعلَمونَ ﴾ ولم يقل لا تحسّون أو تشعرون ، فاستعمل عبارة تعلمون من العلم ، وما نتحدّث عنه وأظهره التنظير لا يصل إلى درجة العلم عند الجنين ، والجنين لا يعلمه علماً بل يحياه حياةً ويمارسه استجابة . إن العلم لا يكون علماً إلا بالتمييز والدّقة والنُّطق (أو التَّحدث) ، ولا تقول المشاهدات بواسطة التنظير إن الجنين يميّز نطقاً دقيقاً ، بل إن ما لاحظوه ليس إلا من باب التوجُّه العملي أو لنقل إنه من باب الاستعداد للمعرفة ، وهذا الاستعداد يشبه الغرائز التي يولد المولود مزوَّداً بها ولا يُنكرها أحد من العلماء . ثم إن الجنين يحتفظ بهذا الاستعداد وينميه ويوضّحه بذهنه ويعبر عنه بالنطق (أو التحدث) خلال سنوات طويلة ، فتتحول الاستعدادات =

أيها القارئ العزيز وحتى نفي بالوعد الذي قطعناه على أنفسنا ، حول بسط وإيضاح ما أشرنا إليه بشكل موجز فسنعمد إلى إيضاح معنى الصحة النفسية وتحديدها علمياً ثم نحاول التَّعرُّف إلى مراحل تخلُّق الجنين .

= إلى علم بعد زمن يطول ويتناسب مع ذكاء المولود واهتماماته ومواقف الجماعة منه وممن حوله .

وسيظل اكتشاف الخبرات « خبرات الجنين وتعابيره الحسية آيةً من آيات الله التي وَعَدَنا بها الله تعالى في كتابه إذ يقول : ﴿ سَنُرِيهِم آياتِنا في الآفاقِ وفي أَنْفُسِهِم ﴾ [فُصِّلت : ٥٣/٤١] .

وفي مقابل سؤال الطالب أطرح بدوري السؤال الآتي : « كلنا يعرف ويعلم أن لكل إنسان من حولنا وجداناً أخلاقياً وذوقاً متميزاً ، فهل نستطيع أن نقول إن وجدان فلان من الناس قد تكوَّن في الساعة السابعة مثلاً في المساء من يوم الاثنين أو الأربعاء ، وفي الشهر الخامس أو السادس عشر من عمره !.. طبعاً لا يمكن القول بذلك لأن في وسع أيٍّ من الناس أن يتساءل فيقول : « هل كان قبل هذا التاريخ بلا وجدان ولا ذوق ؟! » .

الأصح أن نقول إن الوجدان الخلقي والذوق الجمالي يتكوَّن كل منهما بشكل استعدادات سابقة (في بطن أمه مثلاً) ثم تتحول هذه الاستعدادات إلى إدراك واضح ومعرفةٍ بيّنة . وهذا هو المعقول في عقلنا وشرعنا وما أظهره العلم الحديث (المؤلف) .

وسيكون عملنا المقبل إذن : إيضاح معنى الصحة النفسية بوجهٍ عام ، والانتقال بعد ذلك إلى إيضاح التطورات العضوية ، وتحولات الجنين في الْخَلْق والنُّمو ، عملاً بالفكرة القائلة : إن الصحة النفسية (ككل شيء نفسي) لا تعمل في فراغ بل تستند إلى التكوين العضوي على اعتبار أن النفس والجسد يمثلان وجهين اثنين لحقيقة واحدة هي الإنسان (كوجهي العملة) .

وسنستفيد من أقوال الحسن بن الهيثم التي ذكرها في أبحاثه حول البصريات إذ يقول :

« نبدأ بالحوادث ، نمعن النظر فيها .
« ونميِّز ما هو ثابت ومطَّرد وحقيقي ، ونراجِع أنفسنا
« إلى أن نصل إلى اليقين الذي لا يتخلّف ، ونميِّز
« ونحصل على الحق المبين الذي يُثلج الصدر وينبلج فيه النور » .

ونستفيد أيضاً من عبارة الفيلسوف غوبلو التي يقول فيها :

« إن الواقعة هي أساس العلم ، ومرتكزه (أو مستنده) ومعيار صحته » . ولا علم إلا بالوقائع .

ترى ما هي الوقائع هنا وما هو العلم الذي انبثق عنها ؟؟..

سنعرض كل ذلك بعد الاتّفاق على أمرين :

١ ـ معنى الصحة النفسية .

٢ ـ ارتباطها بالتّكوين العضوي للجنين .

الفصل الأول

معنى الصحة النفسية

معنى الصحة النفسية

لا تعني الصحة النفسية البحث في الأمراض النفسية أو الانحرافات ـ كما يُظن لأول وهلة ـ بل إن الصحة النفسية تتناول الحياة النفسية السليمة السوية ، أكثر من تناولها الانحراف ، وإذا تعرضت إلى الانحرافات ، فذلك من أجل معرفتها ومن ثم تقويمها وردّها إلى السواء . إن السواء هو الهدف الرئيسي والهامّ للصحة النفسية .

يرى المختصون أن معظم البشر هم أدنى إلى السواء وأقرب . وإذن يكون همٌّ علماء الصحة النفسية أن يردُّوا المنحرفين والمضطربين إلى جادة الصواب (في مقابل الانحراف) وإلى الاستقرار والسكينة (في مقابل الاضطراب) .

وإذن فإن هدف الصحة النفسية هو ضمان الأمان والأمن النفسي والطمأنينة .

فما هي أهم التعريفات الواردة للصحة النفسية :

التعريفات كثيرة أهمها :

أولاً : هي الخلو من الأمراض النفسية وهذا تعريف واضح ولكنه سلبي ، وهو تعريف يشبه تعريف السوائل بأنها ما ليست بجوامد . يقول علماء المنطق نحن نلجأ إلى التعريف السلبي حين يستعصي علينا أو يستحيل تعريف أمر نجهله ، أو ما لا نستطيع تحديده بدقة مثل تعريفنا الله الخالق : بأنه « ليس بمخلوق » أو تعريفنا للعدم بأنه « ما ليس موجوداً » .

ولدى التَّعمق في هذا التعريف نجده غير واضح لأنه سلبي ، وإذا قبلنا بتعريف الله بأنه ليس بمخلوق ، فذلك لأننا نجهل ذات الله ونعرف المخلوق فنعمد إلى تعريفه بهذا التعريف . أما الصحة النفسية فنحن لا نجهل ذاتها ونستطيع أن نتبين طبيعتها وخصائصها . ولهذا نحتاج إلى تعريفات أخرى هي ما نجدها في التعريفين الثاني والثالث .

ثانياً : الصحة النفسية تماثل الصحة الجسدية وما دامتا متماثلتين فلنسأل أطباء الجسم عن الصحة الجسمية في رأيهم . وسيقولون لنا : تكون الصحة الجسمية عند الإنسان بشروط :

الشرط الأول ـ توافق الوظائف الجسدية وانسجامها مع بعضها (فالوظيفة الهضمية إذا كانت تتوافق مثلاً مع سائر الوظائف الجسمية الأخرى كوظيفة الدوران ، والتنفس ، والتعرُّق ... إلخ) . فإن توافق هٰذه الوظائف وعدم اضطرابها أو تعارضها يعدُّ شرطاً أول لتوفر الصحة الجسدية .

الشرط الثاني ـ مقاومة الصعوبات ومعوقات النمو والنشاط فالجسم الصحيح يستطيع بطرق عدة (كوسائل المناعة) أن يرفض المرض ويدفع أسبابه عن الجسم .

الشرط الثالث ـ الإحساس بالعافية فالجسم الصحيح لا يكتفي بأن يدفع الأمراض بل يجعل صاحبه يحس بالنشاط والقوة والتَّصدي للصعاب وتجاوزها ، وهكذا فإننا إذا حذفنا

كلمة الجسدية من تعريف الصحة الجسمية ووضعنا بديلاً عنها كلمة النفسية فسنكون أمام تعريف للصحة النفسية .

وبذلك تكون الصحة النفسية بشروط ثلاثة :

الشرط الأول ـ توافق الوظائف النفسية فالوظائف النفسية مثل العقل والإدراك إذا كانت متوافقة مع الوظائف النفسية الأخرى كالانفعال (أو الخوف والحزن والغضب) وكانت هذه الوظائف تتعارض وتصدّ وظائف العقل ، فيحول الخوف عند الإنسان دون إمكانية التعقل مثلاً ويمنعها ، فإن الإنسان إذ ذاك لا يكون في حالة صحة نفسية ، وخاصة عندما يكون التعارض بين الوظائف النفسية دائماً ومستمراً وعميقاً .

الشرط الثاني ـ مقاومة الصعوبات ومعوقات النمو والنشاط وكما أن الجسم السليم يقاوم الجراثيم والفيروسات ، فإن النفس السليمة تقاوم الاكتئاب وأسبابه ، كما تقاوم الأمراض الأخرى مثل الميل إلى العدوان وسيطرة المخيلة أو تسلّط الشهوة .

وكما أن المناعة الجسمية تدفع الجراثيم وتقاومها فإن النفس السليمة تدفع عنها أسباب الضعف والوهن النفسيين والاستسلام للملذات والخضوع لسلطان المال أو حبِّ الظهور .

الشرط الثالث ـ الإحساس بالعافية المعنوية وكما أن الجسم السليم يُشعِر صاحبه بامتلاكه القوة والنشاط الجسمي فإن الصحة النفسية تتجلى في صاحبها بالهمة والرغبة القوية لخدمة الحياة والناس والشجاعة وصولاً إلى رضاء الله وطمأنينة النفس .

ثالثاً : تكون الصحة النفسية في توافق الفرد مع الجماعة وهو قدرة الفرد على إقامة علاقات مُرْضية ومقبولة من الآخرين ، على أساس التعاون والتفاهم وتبادل الخدمات . فهو يقبل الآخرين ويسعى ليكون مقبولاً عندهم . إنه يُحِبُّ ويُحَبُّ ، وهو لا يرى ضرورة لإظهار الشكوى والتَّبرم ، ولا يحتاج إلى الاستعطاف لتحصيل مطالبه وحقوقه ، ولا إلى التلاعب بقواعد المجتمع ، أو تجاهل أهمية الناس وقوانين الهيئة الاجتماعية ، وإذا صدف ووقع في الخسارة أو الفشل فإن فشله لا يؤدي به إلى أن يفقد ثقته بذاته بل يعمل ليبدأ من جديد

ليُحوّل الفشل إلى نجاح والخسارة إلى أرباح ، وهو يألف الناس ويألفه الناس ، ويكون موضع احترام الناس أيّاً كانوا .

ويستتبع هذا كله توفر جملةٍ من المميزات الآتية في الفرد أهمها :

تقبُّل النقد : إن المريض النفسي لا يدرك أخطاءه وقد يضخمها في نظره ، أما السليم السوي فيقبل النقد إذا وُجّه إليه ، ويكون مستعداً لينقد نفسه ويعترف بأخطائه . ويرى أن الآخرين ليسوا أعداءً له بل كثيراً ما يكونون أصدقاء (ولو كان لا يعرفهم) ، أليسوا بشراً مثله ؟ وخلقاً ممن خلقهم الله ؟؟.. إنه يرى أن محاسنهم تفوق أخطاءهم .

العمل والإنتاج : السوي من الناس يعتدُّ بعمله لا بنَسَبه ، وبجهده لا بمديح الناس ، ولا بذمهم ، وهو يرى أن لا شيء يمنحه الأهمية مثل العمل وإتقان العمل ، ويعتقد أن قيمة كل امرئٍ ما يُحسنه ، وتراه يحلم بالمجد وتألق الهمة ، ويُحقق عن طريق العمل والإتقان معظم أحلامه إن لم يحققها كلها .

المناعة النفسية : حين تظهر الشدائد يُكشف اللثام عن وجهه السحري ، وحين تهب الأزمات يجابهها ذوو الهمة بمضاء دونما حاجة إلى العدوان واتهام الناس ، أو الانسحاب مثلاً ، أو الهرب والتهرب ، أو طلب الصفح والتسامح المستمر ، أو الشكوى من الحياة . شعاره دوماً ليس المهم أن تبتسم لك الحياة وإنما أن تبتسم أنت للحياة .

الرّضا والحياة الهنيّة : ويقوم الرّضا على تقبل الحلو والمُر مع الاكتفاء الذاتي ، والهناء الداخلي مهما كانت أحوال الناس ، مع تمني الخير للصغير والكبير ، وتطلعه إلى مزيد من السكينة والطمأنينة في معظم الأحوال . وتجعله هذه الطمأنينة ينتقل من تفاهمه مع الحياة والناس إلى التوجه نحو الله خالق الحياة والناس . إنه يعلم أن الله تعالى مع الجميع ولكنه يتساءل هل نحن مع الله ؟ تلك هي القضية .

وهناك من يرى أن هذا المستوى للصحة النفسية لا يتسنى إلا للخاصة من ذوي النفوس العالية من المؤمنين .

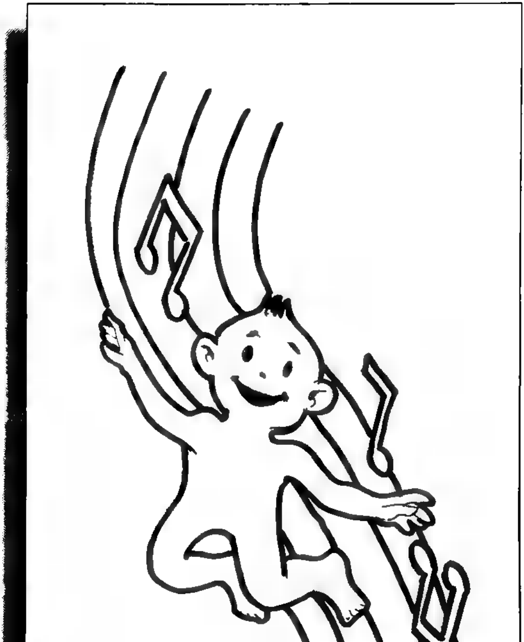

الفصل الثاني

تخلق الجنين وتطوره

تخلُّق الجنين

تكونه ـ أطواره

المدخل إلى الدراسات العضوية :

يصرّح العلماء والمختصون فيقولون : رغم الجهود الفائقة التي بُذلت وأثمرت من أجل معرفة تخلُّق الجنين ، إلا أن الدراسات المتعمقة لم تكتمل بعد وما تزال في أولها .

ما نزال نجهل الكثير الكثير عن الأسباب الدقيقة والعوامل الخفية التي تؤثر في الجنين لتجعله على هذه الصورة أو تلك .

يقولون إن ملايين الملايين من الحوينات المنوية (الذكرية) تُقذف متوجهة إلى فوهة الرحم وتستهدف البويضة ، لكن واحداً منها فقط (أو اثنان) يفوز فيسمح له بالاقتراب !... فكيف ولماذا تجتذب البويضة هذه النطفة دون

غيرها ؟.. وكيف يتم السباق ؟؟.. ومَن هو الفائز ؟.. وكيف تمَّ له الفوز ؟.. إننا جاهلون ، وفي وسط هذا الظلام والجهل المقيم أقام العلماء التجارب ... لعلهم يستنيرون !!..

زرعوا البويضة وهي ملقحة بأمر الله ... زرعوها في جوٍّ اصطناعي شبيه بالرَّحم ، فأخذت تتكاثر وتتكاثر أولاً .. ثم .. وعلى غير توقع أخذت تتوقف .. ثم تموت فجأة .. تكررت التجارب .. وتكرر الموت .. فلماذا ؟.. إننا جاهلون .

إنها الروح التي لم تدبّ في البويضة رغم أنها ملقحة ، ورغم أن الوسط ملائم ولكن ﴿ يَسْألونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِن أمرِ رَبّي وما أُوتيتُم مِنَ العِلْمِ إلاّ قَليلاً ﴾ [الإسراء : ٨٥/١٧] .

القصة

تبدأ القصة بأن تُطلق غدة الرجل مئات الملايين من الحُوينات المنوية ، تحوي الدفقة الواحدة ٢٠٠ـ٣٠٠ مليون حوين منوي .

وتطلق المرأة من المبيض بويضة واحدة ... مقابل الملايين بويضة واحدة في الشهر .

وفي رحلة الصيد

● تتدافع الملايين بل مئات الملايين تفتش عن تلك الواحدة ولكنْ .. ولكنْ لا ولن يُسْمح بالاقتراب إلا لواحد !... واحد فقط من الملايين ؟!.. ذاك أمرُ الله . لماذا ؟.. نحن جاهلون .

● ويجب أن يكون هذا الواحد متميزاً بالتَّفوق من كل بد . وبالقوة ... والقدرة ... والأيْد ... والخصوبة .

● ويتم اللقاء بين هذا الواحد والبويضة الواحدة فيتسرب إلى داخلها فما الذي يجري ؟.. إننا جاهلون .

■ ولكننا نقول إن البويضة قد تلقحت . فكيف وما الذي تمَّ ؟ إننا جاهلون .

■ وأين المكان ؟.. قالوا إنه الثلث الأخير من قناة الرحم

فلماذا ؟ .. إن طرفي الحوين والبويضة يعلمان أين ، فَمَنْ علَّمهما ؟.. إننا جاهلون .

● وحالما تُلقحُ البويضة تُغلِق الأبواب على نفسها ولا تسمح للباقين من الملايين بل مئات الملايين إلا بالخيبة والموت ... فلماذا ؟.. إن البويضة وحدها تَعلَم ، فَمَن علَّمها يا تُرى ؟.. نحن جاهلون .

القصة مثيرة ، والصيد سمين .

سيكون ثمة إنسان ...

وهاكم المعادلة ، تحكيها القصة :
مجموعة أمور مجهولة ، تقابلها حكمة بالغة !!
أن يكون هناك إنسان ...

ونلاحظ أن طرفي المعادلة غيبيّان ... لكن الطرف الثاني يشعُّ بأنوار الإيمان ، وترتاح إليه النفوس .

■ وتتابع البويضة الملقحة مسيرتها ، فتنقسم أولاً إلى

قسمين ، ثم إلى أربع ، فثماني خلايا ... وهكـذا بتسلسل هنـدسي مضاعف .

ومع ذلك ،

يقولون : هذا ليس هاماً !... فما هو الهام ؟..

قـالوا : « إن الخلايـا المتكاثرة تتـابـع مهمتهـا في التمايـز .. فما هو هذا التمايز ؟..

إنه التمايز في الوظائف .

فمن هـذه الخلايـا ستكون عِظـام !... ومن تلـك ستكـون غدد !... من هذه سيكون الـدم ... أو الجِلـد ... فـالحواس ... فالشّعر ... فالأعصاب ... والدماغ ... جلَّ الصانع العظيم .

مَن علَّم الخلايا وظائفها ؟

ومَن جعل لهذه الوظائف نظـامـاً دقيقـاً في منتهى الـدقـة والديمومة ؟

﴿ ما تَرى في خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفاوُتٍ ، فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ

تَرَى مِن فُطورٍ ؟؟ ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ ، يَنْقَلِبْ إِلَيْـكَ البَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسيرٌ ﴾ [الملك : ٦٧/٣ـ٤] .

ويسمي علماء المنطق هذا اللاتفاوت ... بالحتمية ...

وتتابع القصة تفاصيلها المعجزة فيكون من مجموع هذه الخلايا صبي ذكر ، ويكون من مجموع تلك الخلايا بنت أنثى . وحدث أن كان للذكر في التاريخ مكانة ارتقت وعمّت ، وكان للأنثى في معظم جهات الأرض مكانة أدنى ، وهذا ظلم واضح فكانوا في المجتمع الجاهلي ﴿ إذا بُشِّرَ أحَدُهُم بِالأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظيمٌ ☆ يَتَوارَى مِنَ القَوْمِ مِن سوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أم يَدُسُّهُ في التُّرابِ ﴾ [النّحل : ٥٨/١٦] .

وللقصة بقية أكثر إثارة يقولون إن جهود الباحثين التجريبيين مضت تتابع مجراها ، فتمكن العلماء من معرفة (مستقبل الحمل ذكراً أم أنثى !..) لقد تمكنوا من المعرفة المسبقة هذه بناء على دلائل . فلا يوجد هنا سحر ولا ما يشبه السحر[١] .

(١) كما تُعرف أحوال الطقس الجوي بناءً على دلائل حسية .

ويبقى هنالك ما يجعلنا نتوقف ونسأل :

في صالح مَن سيكون هذا التنبؤ ؟.. تلك هي القضية ونحن نزعم أنه « ليس في صالح أحد ... بل وقد تنجم عنها مساوئ نفسية بلا حدود » .

■ فهذه امرأة حامل ... تحقِّق المشاهدات آمالها .

■ وتلك امرأة حامل ... تخيِّب المشاهدات آمالها ولا توجد إلا الحالتان .

أما التي تحققت آمالها وعرفت مسبقاً ما ترجوه ، فإنها ستفقد الفرحة الكبرى بالمفاجأة الحلوة . تلك المفاجأة التي كانت الأمهات تنسى بفضلها جميع آلامها في الحمل والسهر و ... والتعب . وستستقبل مولودها بفرحٍ أقل وفتور أكثر ... لقد تناولت الفاكهة فجّة قبل موسمها .

وأما التي لم تتحقق آمالها واكتشفت الخيبة ... بنتاً بعد بنت بعد .. خمس بنات ، أو صبياً بعد صبي .. بعد صبي .. بعد ستة صبيان !!.. هؤلاء الأمهات ستنمو مرارة الخيبة عندهن

شهوراً بعد شهور ، فيجتمع لديهن (الوهن على الوهن) مصحوباً بالغم (غمّاً على غمّ) . ولا تسَلْ عن ساعة الولادة ؛ لأن كل شيء مكهرب ومُحاط بالغيظ ... وهنا نقول : أما كان الأصح أن تنتظر الأم فتأتيها المفاجأة السيئة مرة واحدة قبل أن تكتوي زماناً طويلاً بالأسى .

استدراك : هناك صالح وحيد !! ولكائن آخر غير الأمهات والآباء ... هو صالح مالك الجهاز الكاشف ... فإن آماله تتحقق قبل الجميع وبشكل مؤكد !!

وفي نهاية القصة .. كما في أولها .. لشد ما ظُلمت نساء بريئات وطُلِّقت الكثيرات وأُهِنَّ .. وعُذِّبْنَ .. لأنهن يأتين بالبنات .. وكنا في عصر الجاهلية يومذاك . لكنَّ العلم قد أصاب هذه المرة ومن جديد ، وأبان أن كون الجنين ذكراً أو أنثى لا يرجع إلى بويضة المرأة ، وإنما إلى نطفة الرجل .

يا للفرح الغامر ، لكن الشاعرة العربية اللامعة امرأة أبي حمزة العتبي أدركت المسألة قبل العلم بزمان طويل ...

لقد كان أبو حمزة هذا قد هجر زوجته لأنها أتته ببنت على بنت وبنات ، وللأسف لم تتمكن من ولادة صبي ... فتأوهت ذات يوم وأنشدت بقلب مكلوم :

ما لأبي حمزة لا يأتينا   يبيت في البيت الذي يلينا
غضبان ألا نلد البنينا   تالله ما ذلك في أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا   ونحن كالأرض لزارعينا
نُنبت ما قد زرعوه فينا

ويستمع أبو حمزة إلى زوجته الذكية فيعود مجدَّداً إلى خبائها من البيت الذي يلينا !...

قالوا واعتذر ... أبو حمزة .

ويبقى هناك وإلى عصرنا الحاضر آباء جاهلون ... فمتى يستيقظون ؟...

وللصبغيات قصة

بل قصص تحمل في ثناياها كلها معجزة من معجزات الله

تعالى في خلقه ، وآياتٍ عظيمة من آيات الله . وتتلخص هذه القصص في الكشف الذي حققه العالمان (كريك) و (واطسون) اللذان حصلا على جائزة نوبل عام (١٩٥٣) بسبب اكتشافهما الذي يتلخص بما سمي بالصبغيات أو الكروموزومات الملونة التي يبلغ عددها (٤٦) كروموزوماً في كل خلية أو (٢٣) زوجاً منها (٢٢) زوجاً جسمياً متماثلاً ، وزوج أخير يتولى تعيين الجنس ذكراً أو أنثى . (ولا حاجة للإحاطة والتوسّع)[1] .

إن هذه الصبغيات هي بأمر الله النظام المدبّر والمراقب ، وهي الآمر الناهي الذي لا تحيد الخلية عن أوامره ، فيها تكمن أسرار التخلق والوراثة ، إن الصبغيات بتعبير أوضح هي المسؤولة التي تجعل خلية الغدة البانكرياسية تفرز مادة الأنسولين لحرق السكر واختزانه (أو تنظيمه) ، وهي التي تجعل غدة الدمع تفرز الدموع لتطرية العينين وحمايتها ، وهي التي تجعل خلية المعدة تفرز الحمض من أجل هضم الطعام .

(١) ومن شاء فليتوسع في كتب علم الوراثة وهي كثيرة .

وشيء آخر ، وهو أنه :

لما كانت الصبغيات (أو الكروموزومات) هي التي تحمل الصفات الإرثية للكائن الإنساني في سائر النواحي العضوية والنفسية ، فإن أي عاهة أو سوء في تكوين هذه الصبغيات يمكن أن تؤدي إلى انحراف في تشكل الجنين وتخلقه . وتكون الصحة العامة للأبوين عاملاً مسؤولاً عن سلامة الجنين أو انحرافه .

● لقد ثبت أن شدة القرابة بين الزوجين تؤدي إلى تثبت الصفات الإرثية . وتظهر آثار هذه الناحية في ضعف الحواس كالبصر والسمع ، والاستعداد لبعض الأمراض .

■ وأن هناك أمراضاً معينة كالزهري والإيذر تؤدي إلى أذيّات في صحة الجنين الجسمية أو صحته العقلية .

● وأن الحمل عند المرأة التي تمَّ حملها بعد الأربعين من العمر يُحتمل أن يأتي بأطفال مشوهين ومنغوليين أحياناً ، وبالمناسبة فإن المونغولية لا تنجم عن نقص الصبغيات كما يُظن وإنما عن زيادتها .

■ وأن نقصان الدرق في أحد الوالدين أو كليهما يمكن أن يتسبب بضعف عقلي واضح عند المواليد .

■ وأن تعسُّر الولادة ، وحصول مضاعفات تنفسية أثناء الولادة ، قد تؤدي في بعض الحالات إلى تأخر ورود الدم إلى المولود وبالتالي إلى تشوهات خَلقية أو نفسية .

فهذه هي أهم المؤثرات التكوينية في سوء تكون الجنين ، وإلى جانبها توجد مؤثرات خارجية عارضة ، مثل تعرُّض الأم إلى عدوى ببعض الأمراض ، ومثل تناولها بعض الأدوية والعقاقير .

إن إصابة الأم بالحصبة الألمانية ، وتناولها الأدوية دون استشارة الطبيب أثناء الحمل وأخذها الإسبرين والكحول والمواد التخديرية ، بالإضافة إلى سوء التغذية عند الأم الحامل ونقص الفيتامينات أو الإفراط والزيادة في بعض المواد الغذائية ، فهذا كله يؤثر في صحة الجنين وتكوينه العضوي والنفسي .

ويوصي الأطباء بأن لا تلجأ الأم الحامل إلى صحبة

الحيوانات مثل القطط والكلاب . فالقطة أو الكلب المصاب بمرض التكسو بلازموس قد يؤدي إلى نقل الطفيلي من الحيوان إلى الأم الحامل في الشهور الأولى للحمل ، فتنجم عنه تشوهات مثل كفّ البصر (العمى) ، أو تضخم الطحال ، أو صغر أو كبر حجم الرأس .

● كما أن تعرض الأم الحامل إلى سماع موسيقا (الجاز والجيرك) يؤدي إلى انكماش الجنين في بطن أمه ، انكماشاً يَظْهر فيه الضيق والنفور من خلال التنظير مثل ما يحصل للجنين حينما تدخن الأم .

ولا بد أن نشير إلى أن تعرُّض الأم إلى الشمس والهواء الطلق وقيامها بالرياضة الخفيفة كل هذا يساعد الجنين على النمو الطبيعي وتكوين مستقبله الصحي والنفسي كالمشي .

الفصل الثالث

تكون علم نفس الجنين

وقائع وظواهر

مهدت

لتكوين علم نفس الجنين

تكاثرت الوقائع والمشاهدات منذ أوائل الخمسينات في هذا القرن . وتجمعتْ مؤكدة تكوُّن علم جديد أطلق عليه اسم سيكولوجية ماقبل الولادة (أو سيكولوجية الجنين) ، وقد وضعت أسس هذا العلم في أوربة أول الأمر ، ثم انتقل إلى أمريكا وكندا ، وكان الذين يمارسون التجارب والمشاهدات من علماء التوليد في البداية ، ثم أخذ ينضم إليهم بعض أطباء الأمراض النفسية السريرية . وظهرت مناعات وثيقة مفادها أن الأبحاث التي يقومون بها سوف تتيح المجال ذات يوم للتأثير في نفسية الجنين تأثيراً مناسباً ، وعلى الرغم من أن هذا اليوم ما يزال بعيداً ، فإن ما تجمع من معلومات وخبرات في ميدان تطور

الجنين من النواحي العقلية والباطنية ؛ ظهر أنه جدير بأن يمدَّ يد العون من أجل إنقاذ الملايين من الأطفال ووقايتهم من الاضطرابات العقلية والانفعالية التي تعوقهم أو تصيب حياتهم بالانحراف أو المرض .

تؤكد المشاهدات ودراسة الوقائع ، أن ما يحدث لنا ونحن في العشرين من عمرنا ، أو في الثلاثين ، أو حتى في الستين ، يؤثر فينا ويبدّل منا ، غير أنه من الأهمية بمكان أن نعلم أن تلك الأحداث (التي لها أثر مختلف وواضح في نفوسنا) قد انطلقت من المراحل الأولى لحياتنا . والنساء الحوامل يعرفن أنهن بالمحافظة على توازن حياتهن الانفعالية ، يحافظن ويحمين تلقائياً تلك الأجنّة التي يحملنها . أما الباحثون والعلماء المختصون فقد أثبتوا بالخطوط البيانية وفي عدد من الدراسات هذه الحكمة العميقة ، ولكنهم مضوا إلى أبعد من ذلك ، وغدوا يرون أن كونهم قادرين على أن يحددوا (في الرحم) جذور السلوك المضطرب ، يجعلهم يتوقعون أن يؤدي هذا التحديد إلى نتائج باهرة بالنسبة لأعداد غير محدودة من الأطفال الذين لم

يولدوا بعد وبالنسبة لوالديهم ، وفي آخر المطاف بالنسبة للمجتمع .

ولا يعني هذا أننا أصبحنا نمتلك ترياقاً سحرياً يستطيع القضاء على جميع الانحرافات وبشكل يعلو على التفسير . ولا يعني أيضاً أن جميع الاضطرابات والانحرافات تنشأ وتتكون أثناء وجود الجنين في داخل الرحم ، ذلك لأن الحياة ليست شيئاً بسيطاً ، أو سكونياً ، أو محدد الجوانب ، وإنما هي أعقد وأحكم .

بعض الوقائع ذات الدلالة[١] :

أثبتت التجارب أن الجنين في الأسبوع الخامس من بدء تخلُّقه يبدي مجموعة أفعال انعكاسية معقدة للغاية ، وأنه حينما يبلغ الأسبوع الثامن فهو لا يحرك رأسه وذراعيه وجذعه بسهولة وحسب ، بل ويستخدم أيضاً هذه الحركات بوصفها تعبيرات (ميوله) ، و (اشمئزازه) بواسطة ركلات ورفسات واضحة لا غموض فيها ولا لبس في معانيها .

(١) Paris Match . Etude documentair . Fevrie 1982 . P.6.

إنه يكره بوجه خاص أن تعبث به الأيدي ؛ فإذا ضغطنا معدة الأم الحامل ، أو قام الطبيب بغرس أصبعه على بطنها قليلاً ، فسرعان ما يتلوى الجنين (وهو ابن شهرين ونصف) ساعياً كي يتحاشى الضغط ، ثم تكررت التجارب تؤكد ذلك ، أما تقصّي تعبيرات الوجه فكان يتطلب فترة أطول من الزمن الذي تتطلبه دراسة حركات الجسد .

وظهر فيما بعد أن الجنين يقطب وجهه ويزوي بين حاجبيه وهو في الشهر الرابع معبراً عن الاستياء(١) ، وهو في هذا الشهر يكتسب ردود فعله الرئيسية ، وإذا داعبنا جفونه (ودائماً بشكل تجريبي وهو في داخل الرحم) وجدناه يغمز بعينه بدلاً من أن يلقي بجسمه إلى الوراء ، أما إذا داعبنا شفتيه وجدناه يشرع بالامتصاص ، وبعد ذلك بأربعة أسابيع وإلى ثمانية يظهر تأثره باللمس شبيهاً بتأثر طفل مولود عمره سنة واحدة(٢) . وإذا لمسنا جلد رأسه بلا قصد رأيناه يحرك رأسه إلى

(١) المصدر السابق ، ص ٦ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤ .

الوراء بحركة فجائية ، ورأيناه أيضاً يرتعش ويضطرب فزعاً من الماء البارد ، فإذا امتصت أمه بعضاً من الماء البارد أخذ ينتفض ثم يركل بطن أمه بعنف .

أما تعبيراته عن الأمور التي يميل إليها أو يبتعد عنها (ويمقتها) فهي مما يدعو إلى الدهشة بشكل مذهل .

والمعروف أن الجنين ليس كائناً يحسن التذوق ، فنحن نكون مبالغين إذا قلنا ذلك ، ولكن ما علينا إلا أن نجعل قليلاً من السكر في السائل الآمينوسي ، حتى نجد الجنين أخذ يلتهم وجبته بشكل واضح . أما إذا أضفنا مادة الليبرول (وهي مادة زيتية طعمها شبيه بطعم صبغة اليود) فإننا نرى أن نسبة الامتصاص عنده لا تسجل هبوطاً واضحاً فقط ، بل إنه يقطّب وجهه ويبدي نفوره وتقززه(٣) .

السمع : أبانت الدراسات المحدثة أن الجنين بدءاً من الشهر السادس يترصد الأصوات بأذنيه وبشكل متواصل ، والأصوات

---

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣ .

من حولـه كثيرة ، وذلـك أن بطن الأم بمـا يحـويـه من الأمعـاء والرحم يؤلف مكاناً مليئاً بالأصوات ، أما قرقرة معـدتهـا فـإنهـا تعرض نفسهـا مثـل الأصـوات الأخرى ، كما أن صـوت الأم وكـلامهـا وكـلام الـذين مِن حـولهـا . فيبـدو أنـه أقـل صخبـاً وضجيجاً من بقية الأصوات . ومع ذلك فإن الجنين يسمعه .

أمـا الصوت القوي الـذي يسيطر ويسود عـالم الجنين فهـو (خفقـان قلب أمـه) ، ذلـك الخفقـان الروتيني الـدائم المنظم ، ومـا دام هـذا الصوت محتفظـاً بـانتظـامـه فـإن الجنين يشعر أن الأمور تجري على ما يرام فيحس بالطمأنينة تغمره !

إن التَّذكر اللاشعوري لتواتر قلب الأم في الرحم يفسر لنـا لماذا يهدأ الرضيع (بعد الولادة طبعاً) حالما يُحمل إلى الصـدر ، أو يُهدهد لدى سماعه تكتكة منتظمة تحدثها ساعة دقاقة .

يرى العالم المعـاصر (إليـاس بنيني) أن ذكريـات خفقـان قلب الأم تُفسر إنسـانيـاً وإلى حـدٍّ واسع ميـل الإنسـان إلى الموسيقا ، ويرى أن جميع الإيقاعات المعروفـة الخـاصـة بـأدوات

النقر ترجع إلى مصدرين رئيسيين هما :

١ ـ الطرق المتواصل السريع التواتُر لحوافر الخيل (وهذا أثر بعيد لماضي الإنسان يوم كان يعيش على الصيد متنقلاً على ظهور الخيل) .

٢ ـ وخفقان القلب وهو الأكثر انتشاراً في الحياة البشرية ، والذي ما يزال وسيظل ما دام الإنسان يمتلك القلب الخفّاق .

واقعة مدهشة : أجريت منذ سنوات قليلة مقابلة إذاعية في إذاعة صوت أمريكا مع رئيس الفرقة الموسيقية (بوريس بروت Boris Brott) ، وفي نهاية المقابلة سُئل « كيف نشأ حب الموسيقا عنده » ؟ كان السؤال بسيطاً جداً وأدنى إلى التسلية ، لكن الجواب أتى مفاجئاً وبدا وكأنه نوع من المزاح ، قال رئيس الفرقة : « إن الموسيقا كانت جزءاً من نفسيتي قبل أن أولد !!.. » واستوضح السائل كيف تمَّ ذلك فأجاب (بروت) : « حينما كنت شابّاً كنتُ أتساءل لماذا كان علي أن أستغني عن القراءة الموسيقية في بعض المقطوعات ، أذكر أنني

كنتُ حينذاك أدير فرقة موسيقية للمرة الأولى ، وفجأة خطر في بالي تلقائياً القسم الخاص بالكمان حتى إنني كنتُ أعزف اللحن قبل أن أصل إلى الصفحة التالية . وفي ذات يوم حدثتني أمي حول الموضوع وهي مدهوشة مما أفعل ، ثم زالت دهشتها عندما تبيّنتْ معي أن المقطوعات المحفوظة لدي كانت تلك التي ألِفَت أمي أن تعزفها وهي حامل بي قبل ولادتي »(١) .

واقعة أُخرى :

قدمت هذه الواقعة امرأة أمريكية كانت تعيش في أثناء حملها في (تورونتو) بكندا حيث تسود اللغة الفرنسية . ولما وضعت ابنتها (سوزي) وبعد شهرين غادرت كندا بعد أن انتقل عملها إلى (أوكلاهوما) التي لا تُسمع فيها أية عبارات فرنسية لا من الناس ولا من وسائل الإعلام ... وتمضي سنتان على ولادة سوزي ، فتسمعها أمها تدمدم بالفرنسية Respirez.Soufflez أي شهيق زفير أثناء مداعبتها لعبتها . وتستغرب الأم من أن ابنتها تتفوه بالكلمتين الفرنسيتين فمن

(١) المصدر السابق ، ص ٧ .

أين أتت بها ؟.. لم يكن هناك من حولها أحدٌ يتكلم بالفرنسية ؛ لا الإذاعة ولا غيرها .. أمر غريب يدعو إلى التساؤل ، وفكرت الأم طويلاً ثم ذكرت ما يأتي :

كانت الأم خلال حملها بسوزي تقوم بتدريبات جماعية مع زميلات حوامل ، وكانت تتلقى وتستجيب لتعليمات المدرِّبة الفرنسية ... وكان آخر هذه التدريبات تعليمات قبل الولادة ، لإجراءات تنفسية ، وقد انتقلت الأم إلى غرفة الولادة خلال صيحات Respirez Soufflez (شهيق زفير) وظلت تسمعها من غرفة التدريب القريبة ، وترن في آذانها أثناء مخاضها وولادتها سوزي ... ولا بد أن المولودة قد التقطت هذه الكلمات واحتفظت بها ، ثم أخذت ترددها فيما بعد ، ولا تعليل آخر يمكن أن يُفسر ما حدث .

إن وقائع مثل واقعة الموسيقي (بروت) و (الشهيق والزفير) كانت الحافز القوي لتكوين علم نفس الجنين .

إن (بوريس بروت) واثق تماماً أن موسيقيين كثيرين

يخص بالذكر منهم (ارتور روبنشتاين) يفكرون بمثل هذا التفكير ، فضلاً عن أن العالِمة (ميشيل كليمان) قد أبانت أن الطفل يُظهر في الموسيقا ميلاً واضحاً لبعض الأصوات ، كما يظهر نفوراً متميزاً لأصوات أخرى .

لقد أوضحت التجارب الموسيقية أن موسيقا (فيفالدي) وموسيقا (موزارت) تنال اهتماماً وإنصاتاً بالإضافة إلى انتظام قلوب الأجنة مثل موسيقا كليمان . أما موسيقا (براهمز) و (بيتهوفن) وكذلك موسيقا (الروك) فإنها تثير معظم الأجنة ، فكانوا يتحركون بعنف كلما انتهى إلى أسماع أمهاتهم هذا النوع من الإيقاعات الحادة .

وفي العشرينات من هذا القرن لاحظ أحد الباحثين الألمان ، رد فعل متميز ومماثل . ذلك أن الكثير من الأمهات الحوامل اللواتي كن يتابعن الاستماع للألحان ذكرن له أنهن انقطعن عن حضور الحفلات الموسيقية الصاخبة بسبب الهياج الشديد الذي كانت تعانيه الأجنة وهي في بطونهن خلال النوم .

وبعد ذلك بخمسين عاماً على وجه التقريب (أي في السبعينات) اكتشف الدكتور (ليليه Lilier) وزملاؤه التعليل العميق لهذه الظاهرة . وفي الواقع لقد سجل فريق من الباحثين أن الجنين ابتداء من الأسبوع الخامس والعشرين يقفز (بالمعنى الدقيق للكلمة) وذلك لدى سماع الأمهات آلات الإيقاع الحادة لفرقة موسيقية ، إذ لم يكن ذلك ليوفر لهم (أي للأجنة) أسباب الراحة والهدوء في تلك السهرات .

البصر : وحينما يكون الطفل داخل الرحم تنمو عنده الرؤية بشكل بطيء وذلك لأسباب واضحة ، ولا يعني هذا أن الجنين لا يرى أبداً ، بل إنه بدءاً من الأسبوع السادس يبدي تأثراً بالضوء[1] . ولديه إحساس بأشعة الشمس التي تصل إليه حينما تعرض أمه جسمها لأشعة الشمس بقصد تحصيلها اللون البرونزي ، وهو يبدي استجابةً ورد فعل في حين أن هذه الأشعة لا تزعجه على وجه العموم ، ولكن عندما يُلقى شعاع وحيد مباشرة على بطن أمه ، فإنه يحوِّل رأسه في أغلب الأحيان وينتفض .

(١) المصدر السابق ، ص ١٤ .

هـذا ويـؤكـد البـاحثـون قـدرة الـوليـد على تمييز الألـوان ويؤكدون تفضيله اللون الأحمر .

التّذكر ، يؤكـد البـاحثون أن ذاكرة الطفل تبـدأ بـالعمل ابتداء من الشهر السادس ، وإذ ذاك يبدأ الجنين يجمّع ذكرياتـه ويحتفظ بها . ولعل ظاهرة (الحب) عند الأم تجاه وليدها تُعـد المحور الكبير الذي تدور حوله ذاكرة الجنين ، وحالما يدرك هـذا الكائن حبّ أمه له ينسج حول ذاته درعـاً معنويـاً واقيـاً يخفف من التوترات التي قد تشعر بها أمه وتصل إليه هو بالذات .

إن القارئ الكريم حينما يتلو السطرين الأخيرين يبدو لـه أن شيئاً كبيراً من التجـاوز يظهر في الكلمـات التي نستعملهـا ، لكن الـوقـائـع (والـوقـائـع كما نعلم هي مصـدر العلم ومرتكـزه ومعيـار صحتـه) ، الـوقـائـع تجعلنـا أو تسمح لنـا بـأن نـذكر ماذكرناه .

يقول الدكتور (توماس ڤيرني) في الدراسة الوثـائقيـة التي ألمعنا إليها(٢) : « من الصعب جداً أن نتصور حملاً أكثر اضطرابـاً

(٢) المرجع السابق ، ص ٩ .

وأبعث على القلق والكآبة ، من فترة الحمل التي مرت بها امرأة أطلق عليها اسم (ماريا) ، إنها تعيش وحيدة هجرها زوجها بعد أن أعلمته أنها حامل ، وكانت تعيش في قلق دائم بسبب فقرها وهجرها والإحباط الذي لازمها ، ولقد ازدادت مصاعب ماريا حينما كشف الطبيب في الشهر السادس وجود دمل ممهد لظهور ورم خبيث نشأ في المبيض . وكان لا بد من إجراء عملية جراحية دون انتظار . رفضت (ماريا) هذه العملية الجراحية التي قد تُسبب لها الإجهاض ، وكانت ماريا تعلم هذا . ولما كانت قد بلغت الخامسة والثلاثين من عمرها فقد كانت تشعر أنها فرصتها الوحيدة في الحصول على طفل ، وهو أغلى شيء تتمناه وتفرح به في حياتها ، ولقد صرحت للطبيب بهذا الشعور وأضافت أنها مستعدة لتضحي بكل شيء في سبيل الحصول على الطفل وحماية حملها .

والواقعة تدفعنا إلى القول أن الجنين في بطنها قد وصلته هذه الرغبة الحلوة العارمة ... ثم ولد الجنين فكان أنثى أطلقت عليها أمها اسم (آندريا) ، وكانت تامة الخلقة تنضح بالصحة

والعافية ، ولقد عاشت هذه الطفلة فيا بعد حياة طبيعية سوية هانئة لكونها كانت متكيفة ومقبولة وتحمل معها مشاعر ممتعة (بلا حدود) بالرِّضا والتقبل .

مجمل القول : على الرغم من المرض المخيف وأوجاعه والألم النفسي والاكتئاب وكل ما كانت الأم تعاني منه ، فإن الأسلوب المبتهج الذي كانت تواجه به حملها بابنتها ، جعل هذه الابنة (طيلة فترة الحمل) تحيا حياة يتغلب الهناء فيها على الأوجاع والاكتئاب . ولم يتم ذلك بلا ثمن فقد عاشت الابنة حياة سليمة (وهي في بطن أمها) ثم أقبلت على الحياة بعد الولادة تنضح بالصحة وتمتلئ بالعافية والرضا الواضح رغم كل المساوئ التي كانت من حولها .

حالة (أوديل) :

حينما يريد العلماء والمختصون أن يوضحوا أثر التجارب التي عاشها الجنين قبل الولادة في تكوين الشخصية غالباً ما يروون قصة أوديل .

كانت (أوديل) فتاة انطوائية . كانت منطوية تماماً على نفسها وفي حالة تشبه الانقطاع عن العالم الخارجي . وكان على الطبيب أن يعالجها خلال سنوات .

كانت أوديل شبه خرساء ، شأنها في هذا شأن معظم الفتيات اللواتي يعانين من الانطواء المفرط . وفي اللقاء الأول الذي شاهدها فيه الدكتور توماتيس في عيادته لم تنبس البنت ببنت شفة ، حتى لقد ظن الطبيب أنها لم تكن تسمعه وهو يحادثها . لقد لاذت أوديل في البداية بالصمت وشيئاً فشيئاً ، بدأت المعالجة تفعل فعلها . ولم يمض على ذلك شهر واحد حتى كانت البنت تنصت وتتكلم .

لقد ذهل والداها لهذه النتيجة السريعة ، وأصابها في الوقت نفسه شيء من الارتباك ، ذلك أن القدرة على الفهم التي أبدتها ابنتها[١] كانت تتسارع بشكل ظاهر . وذلك منذ أن أخذا (والأسرة والتجربة كلها فرنسية) يتحدثان باللغة الإنكليزية . إلا أنها لم يفهما على الإطلاق من أين تأتي أوديل بالكلمات ،

(١) المصدر السابق ، ص ١٠ .

فإنها لم يكونا يتكلمان بالإنكليزية من قبل ، ثم إن أوديل كانت قبل مقابلة الدكتور توماتيس تمتنع عن أي تعامل مع أية كلمات مهما كانت اللغة التي تسمعها .

وحتى على سبيل افتراض أن أوديل تعلمت قليلاً اللغة الإنكليزية ، فلماذا لم يكن أحد إخوتها الأكبر منها يملك الكلمات ذاتها ؟ ولماذا لا تبدو عليهم أية مشكلة ؟؟.. لقد أثار ذلك اهتمام الدكتور توماتيس نفسه أول الأمر حتى جاء اليوم الذي ذكرت فيه أم أوديل صدفةً أنها خلال حملها بابنتها كانت تشتغل في شركة للاستيراد والتصدير ، ولم تكن هناك تتحدث أو تتكلم إلا باللغة الإنكليزية !!..

وعلى هذا النحو فإنه حتى المبادئ الأولية للغة يمكن اكتسابها عن ظهر قلب داخل الرحم ، لو ذكرت هذه النظرية قبل أربعين عاماً لرُفضت وبدت للجمهور غير مقبولة . ولو ذكرت قبل ذلك بأربعة قرون لقُبلت[٢] كواقعة طبيعية ،

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠ .

ذلـك أن أجـدادنـا كانوا يعلمون أن الطفـل يتـأثر قبـل ولادتـه بتجارب أمه وخبراتها .

لقد أنشأ الصينيون العيادات الخاصـة بـالفترة السـابقـة على الولادة . وذلك منذ ألف سنة .

وهذا ما يفسر لنا السبب الذي من أجلـه لجـأت الثقـافـات البدائية دائمـاً إلى النهي لإبعـاد النسـاء الحوامل عن كل مـا يلقي الذعر في نفوس الأجنـة كالنـار والمشي وحيـدات في الظلام ... والتعرض للذعر والخوف الشديد .

الفصل الرابع

الرباط الأمومي البنيوي

أروع ماقدمه

علم نفس الجنين وصحته النفسية

الربـاط Bonding : كانت كتب الطب تجمع قبل ثلاثين عاماً على وصف حياة الجنين بأنها حياة (بقلية) أو (نبـاتيـة) بمعنى سلبي تمامـاً ، كان المعروف أن حجيرات الجنين تنمو وتتكاثر كالبقول ، أما سلوكه وحركاته فلم تكن في نظر الأطباء إلا ردود أفعال ومنعكسات على المؤثرات التي تصل إليه عن طريق أمـه ، وهـذا يعني أنـه (في نظر الطب التقليـدي) لا يستقل عن أمـه ولا ينفرد بذاته ، ولا يتمكن دماغه أن يعمل بمفرده أو لحسـابـه الخاص .

وبعـدهـا تبـدل كل شيء في نظر الطب النفسي للجنين ، تبدل إلى درجة أن الطبيب الباحث الأمريكي المعاصر (تومـاس ڤيرني) طبيب الأمراض العصبيـة والنفسيـة يقـول : « عنـدمـا

يولد المولود ويأتي إلى هذه الحياة لا يبدأ بالتعرف على عالم كان يجهله ، وإنما هو يتابع خبراته التي تكونت عنده وامتلكها في بطن أمه »[١] .

وفي خطوة تالية اعتبرها الباحثون اكتشافاً باهراً في هذا القرن ، أميط اللثام عن وجود اتصال عاطفي بين الأم الحامل والجنين الذي تحمله ، وأطلقوا عليه اسم (الرباط Bonding) . ولقد قلب هذا الرباط أفكاراً كثيرة هامة كنا نعتقد بها حول الحمل ، ونفسية الحامل ، ومفهوم الأمومة ، والحضانة ، والتربية ، والرضاع والفطام . كما بدل كثيراً من فهمنا الجذور العميقة للشذوذ والسواء ، وانحرافات المزاج وأسباب المرض والجريمة ، وطبيعة الحياة النفسية عند الأطفال والراشدين ...

ولقد قلب هذا الرباط أفكارنا عن الانفعالات والاستعدادات العاطفية ، وعن التكيف وأسراره وسوء التكيف وعوامله ، وتكوُّن العدوان عند بعض الناس ، أو الهدوء المتميز عند غيرهم ، وسكينة النفس أو قلقها ومخاوفها المجهولة ...

(١) الحياة الخفية للجنين . توماس فيرني وجون كيللي : المصدر السابق . المقدمة .

فما هو هذا الرباط وما شأنه ؟..

تعريف : عرَّف العلماء الرباط بأنه « تواصل مستمر وزاخم أو كثيف في العواطف والانفعالات بين الأم والجنين قبل الولادة (في رباط أوّل) وبعد الولادة (في رباط ثان) »[٢] .

الرباط الأول

الرباط قبل الولادة : يبدأ هذا الرباط قبل حصول الحمل منذ أن تصمم الأم نفسياً على الحمل وتعقد العزم عليه . إذ تتهيأ لملاقاة المواليد . وحين يتم الحمل أو حين يتم تلقيح البويضة ينمو الرباط عن طريق رضى الأم والحلم بالمولود واغتباطها العميق بانتظاره .

فترسل إليه دفعات من العواطف الغامرة ؛ قوامها الفرح والمودة والتَّقبُّل المستمر فيستيقظ شعوره ويبادل أمه الابتهاج ، ويعبِّر عن ابتهاجه بحركات في بطنها وصفت بأنها لطيفة ساحرة وفي منتهى العذوبة على مشاعر أمه .

(٢) الحياة الخفية للجنين . توماس فيرني وجون كيللي : المصدر السابق ، ص ٦ .

وإذا اكتأب الجنين أو تشوش فإن حركاته وضرباته تشتد وتقوى وقد تصل إلى درجة إيلام أمه .

مواقف الأم الحامل : تختلف هذه المواقف من أم إلى أخرى :

▪ حسب تقبُّلها الحمل أو عدم تقبُّلها إياه .

● وحسب كون الحمل أمنية غالية ناجمة عن صلة شرعية تبعث على الطمأنينة فتفاخر به وتنتظره وتحيا أفراحه وتتولع بحركاته .

● أو كون الحمل قد تمَّ بصلةٍ تتوارى فيها الحامل وبسببها ، تتوارى عن نفسها وفعلتها التي أفضت للحمل ، وهكذا هي تمقت تكون الجنين ، وتشعر أنه (تورُّطٌ) في أبسط الأحوال أو (إثم) وشعور بالذنب ، ولهذا تقف من الكائن المتخلّق موقف العِداء ولا تدري كيف تتخلص منه .

● ويؤثر على ذلك كله حجم الأسرة وعدد أطفالها وأعمارهم ، والرغبة بالحمل ، وانعكاس هذا الحمل على مهنة الأم وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية .

● وحين لا ترغب الأم بالحمل فيتم بغير رضاها (أو بسخطها بتعبير أوضح) ، فإنها تمنع تكون الرباط ، فيحيا الجنين ـ على الرغم من أمه ـ حياة انكماش ويقع في (سلوك بلبلة) أول الأمر أو عدم توازن . تشير الملاحظات إلى أنه يصبر أول الأمر على هذا التنكُّر ، ثم يتوجه صوب المشاكسة والاكتئاب ، ويعبر عنها بضربات أو ركلات بقدميه ، وفي حالات كثيرة يصبح (سقطاً) في ولادة غير ناضجة ، وقبل الأوان . وإذا لم يسقط فإنه يكبت العدوان في نفسه ، ويعاني من التناقض العاطفي أو ما يمكن تسميته تولُّد (الصراع) عنده بين أمرين :

● رغبته الذاتية بالبقاء .

● تجاهل أمه رغبته هذه وعدم تقبُّلها إياه .

ويصبح بسبب هذا كله مهيأً لسلوك الرفض . (وهذا أول الانحراف عن السواء) .

واقعة كريستينا : لقد رفضت (كريستينا) إثر ولادتها

أن تتناول اللبن من ثدي أمها بعد الولادة ، وأصرت على هذا الرفض أياماً . ظنوا أول الأمر أنها ابنة موت ، لكنها قبلت أن ترضع من مُرضع أخرى ، وهنا أُغمضت عيناها وأعيدت إلى أمها معصوبة العينين . فرفضت الرضاع من جديد ، أجرى الطبيب مع الأم حواراً تساءل فيه :

ـ هل أُصبتِ أثناء الحمل بمرض طال وامتدّ ؟.. الجواب : لا .

ـ هل تناولت بعض العقاقير بغير نصيحة الأطباء لمنع الحمل ؟.. الجواب : لا .

ـ هل حاولتِ أن تتخلصي من الحمل بالإسقاط ؟.. الجواب : لا .

ـ إذن فاصدقيني الكلام هل كنتِ راغبة بهذا الحمل ؟.. الجواب : لا أيضاً . فأنا لم أرغب أبداً بالحمل ، ولكن زوجي ألزمني به فهو يحب الأولاد .

تعليل : لقد كانت النتيجة المنطقية أن الطفلة المولودة التي كانت مرفوضة في تخلُّقها وطيلة وجودها وعاشت حياتها

محاطة بجو الرفض في بطن أمها ، والتي حُرمت من الروابط العاطفية التي يتوق إليها الإنسان عامة والجنين بوجهٍ خاص ..

النتيجة المنطقية لعدم التَّقبل الذي جوبهت به (كريستينا) أدى بها إلى عدم تقبُّل والدتها وإلى أن تسلك إزاءها سلوكاً مماثلاً هو سلوك الرفض[1] .

وتابع الباحثون دراسة سلوك الرفض عند الأجنة في حالات انعدام الرباط فتمكنوا من رؤية جذور جديدة للسلوك المنحرف ، من مختلف النواحي العقلية والمزاجية والاجتماعية ، ومضوا يُرجعون إلى الحياة الجنينية المضطربة تكوُّن الاستعداد للوسواس والهيستريا والجنوح والجريمة والاكتئاب وعشرات الظواهر المَرضية ، وهكذا تجري اليوم إعادة النظر في كثير من الانحرافات ، يقوم بها العلماء في ضوء المكتشفات الجديدة حول الرباط .

---

(١) الحياة في بطن الأم : الدراسة الوثائقية ، ص ٢٣ .

وفي المقابل :

أجريت ملاحظات وتجارب عديدة حول أمهات يتحدثن مع أجنتهن !.. ويغنين ببعض الترنيمات ، فتستجيب الأجنة استجابة من يستمع ويترنَّم ، ودُرست مظاهر هذا السلوك ، وعرفت من خلال انتظام النوم والتهام قدر أكبر من الغذاء المتوفر في السائل الآمينوسي الذي يغلفه ويحيط به . وتوفُّر شروط أفضل في التنفس ومجالات للنمو في كافة أشكاله وصوره العاطفية والعقلية والحركية ، لقد شوهد مواليد لا تزيد أعمارهم بعد الولادة على سبعة أيام ، تمكنوا من الجلوس وظهورهم مسندة[١] ، وذلك بفضل النمو الذي تحقق عندهم قبل الولادة باستخدام أمهاتهم طريقة التحدث والغناء ، ويُعلل هذا بأن عضوية الكائن سارعت بالنمو ، وأن العمود الفقري قد حقق نمواً كبيراً بفضل التَّفتُّح النفسي والإدراكي الذي أتاحته مباهج المكالمة والغناء بين الأم والجنين .

---

(١) ويتطلب هذا من الأطفال العاديين أن يكونوا قد بلغوا ثلاثة شهور أو أربعة بعد الولادة .

يلخص الدكتور (برنار تاهيس) في مؤتمر خاص عُقد لهذا الغرض في عام ١٩٨٠ في باريس[١] ، يلخص الهدف من تقوية الاتصال بالجنين بقوله : « إنه الحصول على أطفال متنبّهين ويقظين منذ ولادتهم ، ويتميزون بإدراك أقوى وصحة أفضل مع تحمُّل للمرض ومقاومة للأوبئة والتعب » . وتُجمع هذه المزايا بعبارة واحدة هي حصول (المبادهة) المبكرة وتنميتها في الأجيال .

وحين تغني الأم للجنين يحدثنا توماس ڤيرني عن بادرة الغناء والتحدث مع الجنين فيروي الواقعة الآتية[٢] :

كنتُ في عطلة نهاية الأسبوع من صيف عام ١٩٨٠ قد مضيتُ مع بعض الأصحاب إلى منتجع صيفي للتّنزه في بعض جهات الريف ، نزلنا في منزل كانت صاحبته حاملاً في الشهر السابع ، أمضينا هناك عدة أيام ، وقد لفت أنظارنا خلال

---

(١) الدراسة الوثائقية : توماس ڤيرني وجون كيللي . ص ١١ . انظر أيضاً سيكولوجية الأمومة . عدنان السبيعي . الفصل العاشر .

(٢) الدراسة الوثائقية : توماس ڤيرني وجون كيللي . ص ١٩ .

ذلك ، ما كنا نسمعه منها في نهاية السهرة من دندنة وتهويمة تصدر عن السيدة في غرفتها الخاصة قبل النوم ، كما لو كانت تغني أو تدندن لطفل تريده أن ينام . سألناها في الصباح هل يوجد لديها طفل ، قالت : لا .. قلنا ولمن تُغنين في كل مساء ؟.. أجابت : أغني للجنين !!. ضحكنا ، وتابعت هي : أغني له لكي ينام ويهدأ ويُمضي ليلة هادئة . ظننا أن الأمر يتضمن نوعاً من المزاح ، قلنا هل ترين فائدة حقيقية لمستها من الغناء ؟؟.. قالت : عدة فوائد ، وليست فائدة واحدة ... أولها أن الجنين ينام باسترخاء وأنا أشعر أنه ينمو ويتمدد بسرعة ... ثم تعالوا بعد شهرين لتشهدوا بأنفسكم بعض الفوائد الأخرى ... وأعطيناها أرقام هواتفنا واتفقنا على أن نعود بعد ولادتها ..

يقول الطبيب فيرني : وبعد شهرين وعدة أيام ، عدنا إلى المنزل بعد أن تلقينا مكالمة تلفونية من السيدة بولادتها ، ووصلنا إلى المنزل ، وتحدثنا أول الأمر في مختلف الشؤون ، ثم سألنا السيدة عن المولودة وصحتها ، ثم عن الفوائد التي ألمعت إليها . قالت : سترون كل شيء بأعينكم ... تعالوا ولندخل غرف

دخلنا على الطفلة وكانت ممددة في السرير تدير وجهها صوب النافذة ... ويبدو أنها لم تُحس بدخولنا أول الأمر ، لأننا دخلنا صامتين وعلى رؤوس أقدامنا بلا جلبة أو صوت ... وتقدمت السيدة من سرير ابنتها من الخلف ، شرعت تدندن بالأغنية ... تلك التي سمعناها مراراً من قبل ، فما كان أشد مفاجأتنا إذ شهدنا الطفلة تلتفت صوب صوت أمها ، وقد أشرق وجهها بابتسامة عريضة وعذبة ، وكأنها تقول أنا أتذكر هذه الأغنية ، لقد شعرنا كلنا أن ابتسامة كهذه لا يمكن أن يقوم بها طفل عادي إلا بعد أن يصبح في الشهر الثالث أو الرابع من عمره ...

ويعلق توماس ڤيرني على الواقعة فيقول : « لقد غدوتُ قانعاً بأهمية التواصل مع الجنين حديثاً وغناءً معه ... أيتها الأم غني لولدك بل وتحدثي معه وإياك أن تبالي بسخرية أحد ... إن الذين يسخرون قوم جهلاء ، ويخاطب الأم الحامل فيقول :

وأنتِ إذا حققت التواصل أمكنكِ أن تضمني تفتحاً ونمواً أبكر لولدك ، وثقي أنه سيكون أقوى مبادهة وأدنى إلى التفاهم

معك ، وإنك بهذا السلوك العذب المحبب تُعِدينه وتؤهلينه لحياة رضية أليفة ، ولسوف يألفك ويألف الناس ويؤلف منهم ويندمج مع الآخرين في الحياة الاجتماعية في وقت مبكر ... وأنتِ بذلك لا تكسبينه فقط ، بل إنه سوف يكسب نفسه كما يكسبه المجتمع ، وسيكون منه إنسان فذّ نشيط ، أدنى إلى السواء ، وأقرب إلى التكيف ... والتفاهم مع الحياة .

هذه صورة مشرقة وإيجابية يتم فيها التقارب بين الأم الحامل وطفلها في حالته الجنينية ، وهناك حالات أخرى سلبية ينزعج منها الجنين أمكن تصويرها ، وذلك حين تقوم الأم بالتدخين أو تستمع إلى موسيقا صاخبة . أما التدخين فيؤذي الجنين أذىً كبيراً ؛ إذ يعرقل النيكوتين الذي في السجاير إمكانية اتحاد الأوكسجين بدم الجنين . وأما الموسيقا الصاخبة فتجعل الجنين يبدو وكأنه يفقد وعيه ، وإن كثيراً من الأجنة يتعرضون للسقوط وولادة مبكرة في الكرنفالات التي تشترك فيها الحاملات .

أفضل الطرق للتواصل مع الجنين :

حين اكتشف ڤيرني بادرة الاتصال بالجنين بواسطة الغناء ، كانت الأم تكتفي بطريقة سالبة ، فتضع يدها على بطنها ريثما يتحرك الجنين ويتجاوب مع أمه ثم تُغني له . أما اليوم وبعد الدراسة التي قدمها الدكتور (تاهيس) فقد توصلنا إلى طرق إيجابية فعالة تستثير نشاط الجنين وتستدعي حركاته .

فكيف يتمُّ ذلك ؟..

ينصح الدكتور (تاهيس)[1] الأم أن تتمدد وهي مستلقية ، وأن تبدأ بالاسترخاء حتى تشعر بالراحة الكاملة لعضلات بطنها وذلك حتى تتوصل إلى (ارتخاء تام) للجدار العضلي الذي يشكل حاجزاً بينها وبين جنينها ، ومنذ أن يغدو بطنها في ليونة تامة تستطيع أن تبدأ (برنامج التسلية) مع ولدها . ولتأخذ بطنها بين يديها بشكل محكم وكامل ، ولتحافظ على هذا الوضع بعض الوقت حتى يتكون لديها إحساس بضغط

(١) الحياة في بطن الأم : الدراسة الوثائقية ، ص ٢٣ .

خفيف ، ثم تضغط بأصبعها قليلاً ، ثم تخفف الضغط ... وإذ ذاك فإن الطفل سيبدأ حركته ، و (سيستجيب) لهذه التسلية .. ولكن .. متى يمكن البدء بهذا البرنامج ؟.. إن في وسع الحامل أن تفعل ذلك حالما تحس بأولى حركاته ، ويكون ذلك إجمالاً بين الشهر الثالث والرابع ...

ويخاطب الدكتور (تاهيس) Tåhis الأم فيقول : « داعبيه كل يوم ، وفي الساعة ذاتها إذا أمكن ، وأنا أفضّل أن يتمَّ ذلك في آخر النهار ، يمكنكِ الاستمرار بهذه التسلية ما دمتِ تستمتعين بهذه (الصحبة) التي تتوطّد بينك وبين الجنين ، ولكن لا تبالغي بهذه التمارين ، وفي البداية يمكنك أن تكتفي باستجابة واحدة منه أو اثنتين . ولتعلمي أنه إذا كانت هذه التسلية لا تروق له فإنه سيعلن لك عن ذلك ، فيضرب بطنك برجليه ضرباً ملحوظاً قوياً . وهو في الفترة الأولى يكتفي بالاستجابة ، ولكنه مع مرور الأيام سوف يعلن مطالباً بعودة (التسلية) بحركات عذبة خفيفة ، وفي وسعكِ أيتها الأم أن تميزي حركات الاحتجاج (أو الامتناع) عن حركات طلب

التسلية . بل نستطيع أن نقول في وسعكِ أن تجعلي الأمور بمثابة (نزهة) تمتعيه فيها وتعلّميه ، وفي ذات الوقت أنتِ تستمتعين بملاطفته ومداعبته . وفي الشهر الثامن يمكنك أن تتبيني رأسه وظهره ، وأن تحسي أنه يشد عضلاته ناحية الظهر ، لدى ملامسة يديك . وخارج هذه التسلية ـ التي تدوم عادة ربع ساعة ـ تستطيعين أن تهدئيه حينما يبدأ يضرب بطنك برجليه لسبب من الأسباب وذلك في أي وقت من أوقات الليل أو النهار » .

كلّميه بنعومة ... وغنّي له سوف تشعرين بعذوبة كلامك معه أثناء برنامج التسلية اليومي ، لا شيء يمنع من ذلك ، ولكن اعلمي أنه لن يسمع شيئاً واضحاً قبل بلوغه الشهر السابع أو الثامن ، فضلاً عن أنه في هذه المرحلة من نموه وحتى الولادة ، يميز الأصوات الخافتة من الأصوات العالية ، ولقد ثبت أن صوت الأب له وقعٌ أفضل وأطيب من صوت الأم وذلك حين وُضعت مسجلة (فيها صوت أبيه) قريبة أو لاصقة ببطن الأم .

ويقترح الدكتور تاهيس إجراء التجارب الآتية :

١ً ـ أسمِعوا الجنين بانتظام وابتداء من الشهر الثامن مقطوعة موسيقية مسجلة خفيفة وخافتة ، اجعلوا آلة التسجيل قريبة جداً من بطن أمه ، سترون الطفل يستجيب لهذه المقطوعة الموسيقية ببعض الحركات ، لكنه بعد الولادة ، ما إن تُعاد المقطوعة ذاتها ، حتى يتوقف المولود عن الحركة برهة ثم تعلو الابتسامة شفتيه ويشرق وجهُه ، ذلك أن هذه المقطوعة الموسيقية التي يسمعها تُعيد إليه وتذكره بالطمأنينة التي كانت تغمره عذوبتُها فتنبعث البهجة في نفسه من جديد .

٢ً ـ وإن تسجيلاً لصوت الأب يُقدم للجنين في الشهر الثامن يُعطي النتيجة ذاتها التي أحدثتها المقطوعة الموسيقية الخافتة ، وبعد الولادة ستشهدون بأنفسكم سحر صوت الأب في سلوك المولود .

٣ً ـ فما عليكم إذن إلا أن تغنوا وتتحدثوا مع الجنين ، استخدموا في الغناء الكلمات ذاتها التي تتألف من مقاطع بسيطة

وخافتة ، عدّلوا باتّزان طبقة صوتكم من أعلى السلم الموسيقي إلى أدناه ، والمهم دوماً أن تحافظوا على الإيقاع ، وسيضرب الجنين ببعض أطرافه معلناً سروره .

٤ ـ وأخيراً وحالما تشهدون تقدُّم برامج التسلية غنّوا له أغنية تنويم الأطفال فتحصلوا على ما تريدون من تجاوب . إنكم إذا اتبعتّم ما أقول (والكلام للدكتور تاهيس) تبعثون الطمأنينة في نفسه وهو في داخل الرحم ، وتُشنفون أذنيه قبيل لحظات نومه . ولئلا تتعرضوا إلى الملل عليكم بتنويع النغمات . وحينما تقوم الأم بالغناء بعد الولادة فلتحرص على تقديم الأغنية ذاتها ، التي كانت تُسمعه إياها وهو في داخل بطنها ، فإذا بالمولود يُخلد إلى الهدوء ويتوقف كمن يستعيد ذكريات السكينة السابقة ...

وحين ترغبون بأن ينام المولود يمكنكم أن تقدموا تسجيلاً خافتاً لصوت أبيه ، وسترونه يستغرق في نوم عميق هانئ .

برنامج تدريبي للتجريب :

يمكن للأم الحامل أن تقدم برنامجاً فذّاً لطفلها بدءاً من الشهر الثامن للحمل ، ثم تستعيده بعد الولادة . وسيكون لهذا البرنامج مزاياه الذوقية والروحية ، وتكون فيه التسلية والتربية والتحلية ، وفي هذا البرنامج البسيط تُلقي الأم أول بذور الإيمان العذب في نفس بيضاء نقية .

وعلى سبيل الاقتراح تقدم الأم أنغاماً خفيفة قوامها الألفاظ الآتية أو ما يماثلها . (والمهم أن تظل الأم بحضورٍ قلبي ... لاهف) .

ما .... مي مامي
ما .... مي مامي
ما .... مي مامي

أنتَ حبيبي يا مامي
الله معنا ...... يا مامي

يتم هذا ببطء واضح ويُكرر بنغم عذب واحد .

أما الأب فإن تسجيل صوته الخافت على شريط مسجل ، يمكن تقديمه بالألفاظ الآتية :

با .... با بابا
با .... با بابا
با .... با بابا

الله معنا ...... يا بابا
الله معنا ...... يا بابا

ببطء وبالنغم السابق نفسه مع التكرار .

وهذه الألفاظ هي مجرد مقترحات ، وفي حال نجاحها ... يمكن استعمال كلمات أو ألفاظ أخرى تتسم بالبساطة وتستمد من الأذان والإقامة ، شرط المحافظة على الإيقاع والنغم ، وبذلك تُغرس بذور الإيمان مصحوبة بالمتع والابتهاج .

هذا هو الرباط الأول وقد عرفناه قبل الولادة .

وهناك الرباط الثاني الذي يعزز ـ بعد الولادة ـ الرباط الأول . ويزيده قوةً ووضوحاً ويحوّل الاستعدادات النفسية التي تكونت في الجنين ، إلى قدرات ومهارات وإمكانيات تتجاوز العاطفة إلى الوعي كما تتجاوز العاطفة والوعي إلى تكوين اتجاهٍ نفسي مكين ، يهيئ المولود إلى حسن التكيف في الداخل وفي الخارج (مع الآخرين في المجتمع) ويساهم في تنشئة الإنسان وضمان مستقبله المشرق وشخصيته المتألقة .

خاتمة

الصحة النفسية والتربية للجنين

كان المربون يقولون قبل ثلاثين عاماً أو أربعين : « إن التربية تبدأ في لحظة ولادة المولود ، أي منذ بدء حياته على الأرض ، واليوم وبعد اكتشاف نفسية الجنين صار المربون يقولون : إن التربية تبدأ في لحظة تلقّح البويضة وتخلّق النطفة » وإحساس الأم بثبوت الحمل .

وتحقيقاً لهذا القول نرى ما يأتي : إن الحمل مهما امتدّ وثقُل ظلُّه فسينتهي قطعاً ذات لحظة بالولادة .

إن الولادة السليمة هدف هام لكل أم حامل . ولكن هذا الهدف ليس غاية في ذاته ، أما الغاية الحقيقية فهي (ولادة مولود سوي) .

ليس المهم أن تحمل النساء وتأتي بالمواليد ، المهم أن يكون الحمل مؤدياً إلى مواليد سوية فاخرة ومتكاملة . والسؤال الجدير بأن يطرح على كل أم حامل هو : « ماذا ينبغي عليَّ أن أفعل كي أكون جديرة بالفرح والابتهاج من جراء ولادتي مولوداً يفتخر به ؟... » .

الجواب : هناك أمور كثيرة ينبغي مراعاتها ويمكن أن نصنّفها في صنفين اثنين :

- صنف الأمور السالبة التي يجب أن تتحاشاها الحوامل (بوصفها صعوبات أو منغصات) .
- صنف الأمور الإيجابية التي يجب عليها أداؤها وتحقيقها .

الأمور السالبة :

كراهية الحمل ، القلق ، التدخين ، الموسيقا الصاخبة والأصوات المنكرة الحادة .

١ ـ على الزوجة العاقلة أن لا تصمم على الحمل إلا حين تكون مهيأةً له من نواحيها النفسية والاجتماعية . أي حين تجد في نفسها الشغف والرغبة الصادقة بالحمل ، والقدرة على حمايته والحفاظ عليه . وعقد الرباط الجميل معه . إن الحمل مسؤولية وليس مجرد رغبة .

٢ ـ وحمايةُ الجنين تتطلب من الأم ضبطها لنفسيتها ، ومحافظتها على هدوئها ومشاعرها ، واستمرار سيطرتها على نقاوة أفكارها ، وتقبُّلها الحمل بقبول حسن ، واستعدادها كي تُنبِته نباتاً حسناً . وتتصل به بكامل وعيها وترسل إليه في سِرِّها أجمل العواطف لتصنع معه الرباط الهانئ .

٣ ـ القلق والتوهمات : تشعر الكثيرات من النساء الحوامل بقلق عميق حول أمور كثيرة أهمها :

أ ـ ثقل الحمل وتوهُّم اشتداده في الليل والنهار .

ب ـ التوجُّس من صعوبات الولادة وآلامها . والتأثُّر بما تسمعه هنا وهناك عن واقعة الولادة وشكل المولود وسلامته .

جـ ـ وتكوُّن ما يسميه العامة (بالوحم) أو الشهوة في جسم المولود من جراء اشتهاء الحامل أطعمة أو أشياء لم تحصل عليها .

وتفادياً لهذا كله تُطالب الأم بعدم التأثُّر بالإشاعات ، وبدلاً من هذا تعمد إلى تنظيم تغذيتها ، والقيام بزيارات متتابعة للمركز الصحي المختص بالولادة ، وطرح جميع الأسئلة حول الإشكالات التي تقلقها .

٤ ـ تدخين الأم : إذا كان الجنين ضيفاً موقوتاً على قلب أمه غالياً ، فهل يعمد إنسان وقور إلى إيذاء ضيوفه ؟؟.. إن الحضارة اليوم والذوق السائد في الأمم المتحضرة تحظر على الناس ممارسة التدخين في مكان عام ، حماية لصحة الآخرين وابتعاداً عن المنغِّصات . ولما كان العلم الحديث قد أثبت بفضل (التلفزيون) والملاحظات والمشاهدات المرئية انزعاج الجنين حينما تدخن أمه[1] ، فهل من المعقول أن تمارس الحامل التدخين وتضيِّق سبل الراحة على ضيفها الغالي ؟..

(١) يراجع هذا في صفحة ١٥ من هذا البحث .

إن القضية في رأينا أبلغ وأهم من مجرد المضايقة ، بل لقد أثبت العلم وأثبتت التجارب أنه ينتج عن تدخين الأم عقابيل سوءٍ كثيرة أهمها ما يأتي :

أ ـ أن الأجنة التي تدخّن أمهاتها (أو تتناول المسكرات) تَقْصُرُ فترة بقائها في الرحم وتكثر فيها حالات الولادة المبكرة (السّقط) .

ب ـ وتتميز هذه الأجنّة إذا ظلت على قيد الحياة بخفة الوزن نسبياً بمعنى أنها لا تنال كفايتها من الغذاء ولا تتحقق حاجتها إلى النمو .

جـ ـ كما ثبت أنها بعد الولادة تكون أقل ذكاء من غيرها (أي من الأجنة التي لا تدخن أمهاتها) وتعليل ذلك يسير وذلك بسبب أن الغم الشديد والكربَ الذي يُصاب به الجنين حين تدخن أمه يجعله محدود النشاط منكمشاً على نفسه ، وإذا استعرضنا تعريفات الذكاء ووجدنا أن الذكاء ليس فقط في امتلاك طاقات عقلية وحسب ، بل وفي تسخيرها والاستفادة

منها بنشاط ، فهؤلاء الأجنة قد يكونون في الأصل مستعدين لامتلاك طاقات عقلية جيدة ، ولكن الإحباط المتواصل الذي يخامر الأجنة والناجم عن تدخين أمهاتها ، هذا الإحباط المبكر من شأنه أن يفضي إلى كفٍّ متواصل للطاقات العقلية والحيلولة دون نشاطها وتألّقها ، أو تفتّحها ... وبهذا يعلل العلماء تراجع الذكاء في الأجنة بسبب تدخين أمهاتها .

▪ - ونقول الكلام ذاته حول استماع الأم الأصوات المنكرة والضجات الصاخبة في (موسيقا الجاز) ، لقد أثبتت المشاهدة التلفزيونية للأجنة أن الجنين ينفر من الموسيقا الصاخبة ويبدي تأثره السلبي وانزعاجه منها . وإضافة إلى هذه الأصوات فإن الحركات الجنونية التي تتجلى في الرقص الصاخب تؤدي إلى النتائج السيئة ذاتها ، ولقد أثبتت الملاحظات انتشار حالات السّقط (الولادة المبكرة) بُعيد حضور الأمهات الحوامل الكارناڤالات وما إليها .

الأمور الإيجابية :

وعلى الأم أن تحقق بشكل إيجابي أنشطة نافعة أشرنا إليها فيما مضى وقلنا إن أهمها : تقوية التواصل مع الجنين عن طريق :

١ ـ توفير أنغام خفيفة للجنين تقدمها الأم الحامل بعد الشهر السادس في شكل دمدمة وتهويمات .

٢ ـ إتاحة أنغام خفيفة للجنين يقدمها الأب بصوته بطريق التسجيل فيُمتع طفله بها .

٣ ـ وبوسع الأم الحامل المسلمة أن تشترك مع ابنها في الدعاء والصلاة . أجل وإنها حين تشكر الخالق الجميل وتقول في صلاتها ﴿ الحمدُ لله رَبِّ العالمينَ ﴾ فهي جديرة بأن تحسَّ الشكر يملأ أعطافها ويفيض من ذات نفسها وأعماق حجيراتها ، من دماغها النشيط ، ومن لحمها ودمها وقلبها النابض ، ثم من الجنين الذي فيها والذي راح يملأ حياتها ويشاركها السكينة والعذوبة وجمال التطلعات .

٤ ـ أما الارتقاء إلى مستوى الأخلاق السامية ، فيمكن أن يكون بعضاً من كيانها وجزءاً لا يتجزأ من نفسية أم غمرها الإيمان وبخاصة حين تقرأ في كتاب الله تعالى : ﴿ مَن كانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَللهِ العِزَّة جَميعاً ، إليهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر : ١٠/٣٥] . وتقرأ : ﴿ أَلَم تَرَ كَيفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وفَرْعَها في السَّماء ﴾ [إبراهيم : ٢٤/١٣] .

٥ ـ ولترقب تفتّح الرباط في نزهاتها حين تتنزه وتأمُّلاتها حين تتأمل غروب الشمس وسعة البحر وعذوبة الصباح والمساء . ولْتحس أنها من خلال تأمُّلاتها العذبة تدفع إلى الجنين بموجات تملأ كيان الجنين وتستغرق حياته بالجمال والإيمان .

THE FAMILY AND THE SOCIETY
PSYCHOLOGICAL HYGIENIC

١

Fetus Psychological Hygienic
Al-Ṣiḥḥah al-Nafsīyah li-al-Janīn
by: 'Adnān al-Subay'ī

أكدت الاكتشافات الطبية الحديثة أن الجنين كائن معقد وليس مجرد عضو ملحق بالأم، وأنه ذو حساسية كلية ومؤكدة، يفرح ويألم، ويبدي سلوكاً يدل على أنه يحب ويكره، يُقبل على امتصاص المواد الغذائية الحلوة ويعرض عن كريهة المذاق... ينصت للموسيقى الهادئة ويعرض عن الصاخبة... يميز صوت أقرب الناس إليه.

قبل ثلاثين عاماً كنا نعتقد أن الجنين في بطن أمه عضو جسماني ملحق بالأم، يكبر وينمو، إضافة إلى أن الطب البشري كان يتردد في التعامل مع الفعاليات النفسية للجنين، ويترك ذلك للفلسفة على أساس أن الطب يعنى بعلاج الاختلالات المادية فقط.

وهذا الكتاب يقدم معلومات وفيرة ومركزة حول الصحة النفسية تهم الآباء والمربين وكل قائم على رعاية الحوامل.

DAR AL-FIKR
3520 Forbes Ave., #A259
Pittsburgh, PA 15213
U.S.A
Tel: (412) 441-5226
Fax: (412) 441-8198
e-mail: fikr@fikr.com
http://www.fikr.com/

ISBN 1-57547-341-0
9 781575 473413